يتعذر إشغاله تعذر إملاء فنطيس (برميل) الدنائيد (١) اذ بعدت غاية عملنا بقدر امتداد دائرتها وانفصمت عرى الموازنة بين رغائبنا وأسبابنا فبذلت القوى العصبية واجهدت القرائح فوق طاقتها فكان من ذلك أمراض عصبية كثيرة .

التصوير والرسم

ما برح أهل الاختصاص في مدنية الاسلام يعجبون من كونها بلغت عند أهله شأوا بعيداً على حين لم يكن لهم هوى في التصوير والرسم كما لاهل المدنية من الامم الغربية لهذا العهد مثلا فيحكم أولئك الباحثون حكماً اجالياً على مجموع ماقام من تلك المدنية بجزء طفيف اطلعوا عليه منها .

ثم حظر الاسلام رسم الاشخاص مجسمة على حجر او خشب أو نحوه تفادياً من ان يرجع العرب الى عبادة الاصنام والوثنية التي جاء الاسلام للقضاء عليها . أما الرسم الذي يمثل الاجسام الى حد مافهو مباح لاحظر فيه ولا وزر على فاعله . والدليل على ذلك انه كان يرد على الصحابة اقمشة من بلاد الروم وفارس رسمت عليها صور أشخاص وغيرهم فاستعملوها في ألبستهم وفرشهم وأثاثهم وتحاشوا من وضعها في مكان عال فلم يجعلوها ستائر للنوافذ ولم يعلقوها على الجدر مخافة ان يشعر ذلك بتعظيمها .

---

(١) اسم لخمسين بنتاً لدانوس ملك مصر وارغوس من بلاد اليونان حكم عليهن ان يملأن بالماء فنطيساً لاقرار له لانهن قتلن ازواجهن وهذه القصة من اساطير اليونان المأثورة وبها ضرب الكاتب المثل .

اما رسم المسائل العلمية وتصويرها كالنبات والبيطرة والحيوان والهندسة فقد استعمله المسلمون بحسب الحاجة اليه . نرى مثلا من اجادتهم في هذا الشأن من رسوم كتب أبقتها لنا الايام ومنها كتاب كليلة ودمنة الذي عرب في القرون الاولى وشاع بين الطبقات كافة مزيناً بصور الاشخاص. وكذلك مقامات الحريري فقد نقل لي من زار مكتبة باريس ان فيها نسخة من المقامات مصورة بأبدع الصور كتبت في القرن السادس . ولابن عربشاه الدمشقي كتاب فارسي اسمه المرزبانامة مزين بالصور أيضاً .

قال أحد العلماء الاعلام في أحوال الاسلام . أفرط الاوربيون في استخدام الصور والرسوم حتى صار مصوروهم يتخيلون من ضروب التصوير مالا يتحقق في الحس وابتذل التصوير والرسم حتى صرت اذا قلت للغربي انك زرت البلد الفلاني مثلا ولم تأته بصور شمسية يكاد لا يفهم منك ولو كنت من الفصاحة بحيث يشترك في درك ما تقوله الكبير والصغير مما يكاد يدل على ان تلك الامم لا تقبل أذهانها الا المحسوسات وتدق عن تصور ما لا تراه في صورة مرسوماً رسماً مجسماً . قال وليس من العقل تصوير كل الكتب ولا جعلها خلواً من الرسوم بتة مع مسيس الحاجة الى التصوير ولا سيما في المسائل العلمية والادبية وان الاكثار من الرسوم يضعف قوة التصوير .

ومن العجيب ان المسلمين وان حظر دينهم التجسيد والهياكل والتماثيل فقد أبقوا في مصر على ما وجدوه منها مثل تمثال أبي الهول فانه بقي سالماً الى قبيل القرن الخامس حتى اذا اشتد التعصب قام بعض الجهلة يتقربون الى الله بالعبث بها وقد ذكر ذلك عبد اللطيف البغدادي الفيلسوف المشهور

في رحلته ورد عليهم رداً تفهم منه ان المسلمين كانوا من التسامح بحيث لا يطيلون يد الاذى حتى لما حرمه شرعهم

نقل ابن ابي أصيبعة ان الملوك من اليونانية وغيرها كانت تعلم أولادها الحكمة والفلسفة وتؤدبهم باصناف الآداب وتتخذ لهم بيوت الذهب المصورة باصناف الصور قال وانما جعلت الصور لارتياح القلوب اليها واشتياق النظر الى رؤيتها فان الصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التي فيها وكذلك نقشت اليهود هيا كلها وصورت النصارى كنائسها وبيعها وزوق المسلمون مساجدهم

انحطاط الاخلاق

من البديهي ان للخلق عملا كبيراً في الحياة الانسانية يظهر أثره على كل فرد من أفراد النوع والحكم في هذا ثابت بالاستقراء مؤيد بالبداهة لاحاجة بنا الى الفلسفة فيه واقامة الدليل عليه . وانما نريد ان نذكر من أثره في مجموع الامة ماأصيب به أهل الشرق من الانحطاط الناشئ عن ضعف الاخلاق وفساد ملكات العلم بوسائل الحياة الطيبة التي يتمتع بها أمم غيرهم

لاخلاف بين الباحثين في طبائع الامم المشتغلين بتقصي أحوال الاجتماع في ان المدنية وان كانت أثراً جميلا من آثار ترقي الشعوب وتخلص العقل من قيود التقليد وتخلصه من أسر البداوة الا انها مرتع خصيب لجراثيم الادواء المفضية الى انحطاط الامم التي تنمو بنمو الحضارة وتتربى في احضان المدنية . ومن ثم كانت المدنية أشبه بمرتفع ذي سلمين للصاعد والهابط